

## من أسرار الوضع في اللغة العربية

الأستاذ جلال الحنفي

ليس للشك مجال إلى أفكار الباحثين في أن اللغة العربية ذات سلطان مبین في عالم اللغات ؛ وأن معجماً واحداً من معاجم اللغة العربية يمكن للدلالة على أن هذه اللغة لغة بالغة أوج مراتب من بين سائر الألسنة ؛ وأن أهلها الذين وضعوها كانوا على جانب عظيم من الرجحان العقلي والنضج والإحساس .

ومن البديهي أن لغة كل قوم حجة لهم أو عليهم . فإذا كانت لغتهم حصيفة موزونة ، فهم أولو أفكار عالية وأذهان خصبة ؛ وإذا كانت لغتهم ركيكة شثيلة فإن ذلك يدل على أسهم متفككو عهري التفكير ومتقطعو سلاسل الثقافة .

والعرب وإن كانوا أميين لا يسنون بالقراءة ولا بالكتابة فإنهم استطاعوا أن ينشئوا لأنفسهم لغة محكمة مفصلة في خلال أدوار أميتهم ومن قبل أن ينتقلوا إلى عهود الكتابة والتدوين .

وليس المهم أن يضع العرب الأميون لأنفسهم لغة واسعة للتخاطب كثيرهم من الأمم ؛ وإنما المهم أن تكون اللغة التي وضعوها قائمة على مقاييس فنية عجيبة تدهش السنول وتحلب الأسباب .

ولم يُعرف أن لغة أخرى غير العربية قام فيها الوضع على مثل هذه الملاحظات والدقائق . فكثير من الألفاظ التي أطلقها العرب على بعض السميات أو بعض المبادئ لم تكن لجرد التسمية لمحب ،

بل كانت فرق ذلك للملاحظات فنية بارعة ؛ فمن ذلك أن العرب سموا الناهة المخوفة (منازة) تفاؤلاً بالسلامة من المكاره وارتقاباً للنجاة من المخاطر ؛ وفي ذلك إشباع على النفوس وإمداد لها

بالطمأنينة والرجاء ... كما أنهم سموا اللسوع الذي لدغته الأذى (سليماً) ليوحوا إلى نفسه شيئاً من الأمل بالبرء ، وليوفسوا في ذهنه بعض الرجاء في الشفاء ... وسموا الأعمى (بصيراً) ليهدوا

في نفسه ثورة التبرم وثلاثاً يشمر بأن العس منقصة في الحياة أو جنابة من الجنابيات ، أو أنه شيء مما يقصر بالرد عن آداة

الناس في المحقوق ...

ومن هذا النوع الشيء الكثير من مفردات اللغة يستدل منه على أن الوضع في العربية قام على أركان غير ملحوظة في سائر اللغات المالية التي توخى واضعوها تركيب الألفاظ لقاء المعاني المقصودة ليستمان بها على التخاطب والتفاهم ...

وهناك أنواع من المفردات أتقن الواضع العربي أمرها كل إقتان ، وأحكم تديرها كل إحكام ، لجأت مهندسة الشكل مميّنة على بلاغة الأساليب صريحة في دلالتها على عظمة هذه اللغة وعلى

جلالة قدرها وارتفاع شأنها . وقد وضعت هذه المفردات لتدل دلالة مفاجئة على المبادئ المقصودة ، فمن ذلك لفظة (ضيزى) فإذا قرأ أحد قوله نال : ( تلك إذن قسمة ضيزى ) علم بالبداهة أن هذه اللفظة إنما تعنى وصف القسمة بالجور والقيمة ، وإن كان لم

يسبق إلى ذهنه شيء من تفسير معنى اللفظة ، وذلك لأن النمط الذي نسجت عليه يدل دلالة واضحة على أن هذه اللفظة لا ترمى لتبر معنى الجور والنقص . وكذلك الحال في معظم ألفاظ العربية

فإنها جاءت مقارنة لمعانيها فلم توضع في العربية لفظة خشنة لمعنى رقيق ، ولا وضعت لفظة رقيقة لمعنى ثقيل ... وأسباب ذلك أن الواضع كان يتأثر نفسياً ببعض الأعمال أو ببعض الأمور فيضع

لها سميات بحسب ما يسيطر عليه من الشعور نحو تلك الأعمال والسميات ، فكان إذا كره شيئاً أو استأزمنه سماه باسم فيه وعورة وخشونة ، وإذا أحب شيئاً ورغب فيه سماه باسم فيه رقة وليونة ؛ فهو مثلاً عند ما بوغت يوماً ما بقسمة جائرة اشتد غضبه وعظم

إزعاجه فابتغى يصف تلك القسمة بوصف بشيراً كبير مقادير الاشتعزاز في النفوس فكان لده من ذلك لفظة (ضيزى) . ويرى الواضع شيئاً عريماً خائر القوى فلا يجد إلا أن يطلق عليه

تسمية خشنة ثم عن مبلغ ما اعتري هذا الواضع من الدهشة لذلك المنظر الذي هو رمز من رموز الموت ، تلك التسمية هي : (التشثمان) .

وتجد الواضع يستمع إلى شاعر يلقى قصيدة من الشعر الركيك المهلهل فيميج ذوقه مثل هذه القصيدة ويستمدخف مثل هذا الشاعر فيؤلف له من بعض الحروف الخاصة تسمية يسب عليها شعوره الحاد ، ثم يطلقها عليه لئلا يثار منه فينقلب ذلك

الشاعر وقد حمل اسماً جديداً هو ( القززام )

ويشعر الواضع في طريق كثيرة التلبذ والأعقاد فينكس التعب ويجهد السير فيلقى على الطريق اسماً جديداً يتم عن شدة تدمره منها وذلك الاسم هو ( القردودة ) وكذلك أطلق نفس الاسم على شدة برد الشتاء ... ويترجم الواضع من امرأة كثيرة الكلام والسخب تقطم عليه راحته وتشرش عليه طمأنينته فيطلق عليها اسم ( القردائرة ) تشويهاً لها . ويرى رجلاً منهنياً للشر متربصاً لأسباب الشقاق والمصومات على الدرهم فيسميه ( القردحر ) ... ومن هنا رجعت في العربية مفردات متناثرة الحروف أو ثقيلة على الأسماع ، وكان البناء يظنونها ميبية في البلاغة غير أنها إذا جاءت في مواقعها الملائمة لها كانت من عرافين البلاغة ومن عيون الكلام ...

ولقد عيب على الشاعر استعماله كلمة ( القفاخ ) في هذا البيت وأحقق من بكرع الماء قال لى : دع الخمر واشرب من قفاخ مبرد مع أن الشاعر نال باستعمال هذه الكلمة توفيقاً عظيماً من البلاغة ، لأنه أراد أن يهجو الماء تمديداً لمنه من الخمر ، ولم يكن مناسباً لهذا الهجو إلا أن يطلق على الماء أشع أسمائه .

والمعجب في هذه اللمعة أن كل لفظة موضوعة فيها يمكن الوصول إلى معرفة السر في وضعها واختيارها ، وما وضعت في العربية لفظة واحدة لمضى من المعاني إلا للعلامة رابطة أو بسبب وثيق . فإن الواضع العربي وضع مثلاً لفظة ( الضجج ) لشيء وضع الجانب على الأرض ، ثم وضع نفس اللفظة لشيء ميلان النجم للقرب ، وأسباب ذلك أن النجم عندما مال للقرب شابه ميلان الرجل للثوم فأطلق عليه ذلك . ولما كان النائم المضطجع قاصراً عن كل عمل فقد قالوا : تضجج الرجل إذا قصر في الأمر ، وأطلقوا ( الضججة ) على الوهن في الرأي ، لأن الرأي الواضع أشبه بجألة الزائد الذي لا يفكر تفكيراً سليماً . وأطلقوا لفظة ( الضاجج ) على الأحق لأنه أشبه بالنائم لعدم إنتاجه شيء من الخير والصلحة ، وكذلك أطلقوا هذه اللفظة على منحني الوادي لأنه مائل كالنائم المضطجع ، وأطلقوا لفظة ( الضجوج ) على السحابة الثقيلة بالماء والبطيئة في سيرها كأنهم شبهوها بمن يريد أن يضطجع من ثقل وتراخ . وهكذا الأمر في كل لفظة من ألفاظهم ...

وليس الألفاظ المشتقة في العربية أصل لدى الواضع فإنه كان طوراً يبدأ الاشتقاق بالفعل وطوراً يبدأ بالمصدر وطوراً باسم من الأسماء ، فثلا على ذلك أنه أطلق اسم ( الأسد ) على الحيوان المفترس الحروف ، وبعد حين احتاج إلى أن يصوغ منه فصلاً فقال ( أسد ) أى صار أسداً في بعض خصائصه . . وكذلك الأمر في سائر الألفاظ فإنها تنقسم في الاشتقاق إلى هذه الأقسام . وقد يضع الواضع المعنى المطلوب لأول مرة بصيغة الأمر ثم يشتق منه الماضي ، أو بصيغة الماضي ثم يشتق منه باقي الأفعال ، وربما وضعه بصيغة اسم الفاعل أو اسم المفعول ثم ينتقل فيتصرف في الذمت والاشتقاق ...

وقد أعانت هذه الطرائق في الوضع على توسيع دائرة البلاغة وإنهاض أساليب الكلام ، قد هيأ واضح اللمعة للشعراء جملة كبيرة من الوسائل اليسرة لقرض الشعر وتجويده ؛ فإعداد مئات من الألفاظ المترادفات أدى إلى انتعاش القافية في الشعر كما أدى إلى تعدد الأوزان والبحور ، ولولا هذه المترادفات الكثيرة لما حصل لدينا هذا الرخم الكبير من البحور والقوافي والتفعيل ، فإن الشاعر إذا لم يجد ملاءمة بين بعض الألفاظ ذات المعنى المقصود وبين وزن التفعيل استطاع الإتيان بألفاظ أخرى تنتمي الوزن وتناسب الروى وتقضى المطلوب ...

وهناك حروف إن اجتمعت في بعض كلمات دلت على معانٍ متقاربة ( فالعين ) و ( القاف ) و ( الهال ) إن اجتمعت دلت على الشدة والأحكام ؛ و ( العين ) و ( الطاء ) و ( النون ) دلت على الإقامة والثبات ؛ و ( الكاف ) و ( الزاء ) تدل على الجمع والترديد ؛ و ( الهاء ) و ( الزاي ) تدل على الاضطراب والحركة . وهناك حروف إن اجتمعت في كلمات دلت على أنها منقولة إلى العربية من ذلك ( الظاء ) إذا جاءت بعد ( الهاء ) وكذلك ( الزاي ) بعد ( الهال ) ...

وهناك أسرار وأحاديث في هذه اللمعة الجيدة تثير النهضة ذلك تنخيص الكلام عن أسرار الوضع في العربية فكيف ياترى تيسر لسكان جزيرة العرب أن يؤلفوا لغتهم هذا التأليف المحكم ، وكيف كان عليهم أن يضفوا مترادفات هذا الوضع الفني الدقيق ؟ ...

إن ذلك شيء عجيب يستحق الكلام الطويل ...

مهول العنسى

( بناد )